على تمثال فوزى المعلوف

كلمة الأستاذ فليكس فارس

في حفلة إزاحة الستار عن تمثال الشاعر فوزى المعلوف
في ١٢ سبتمبر في مدينة زحلة — لبنان

عند ما أزيح الستار عن هذا النُّصب كأنه إنسان عين لبنان. وحبة القلب في بلاد العرب، رأيت الذرى المحدقة بهذا الوادى تميد من جهاتها الأربع وقد أطلت من ورائها طغمات أصنام تتراشق نظرات الاستغراب وتتبادل هتفات الاستنكار

إنى أعانيها بالجرح الوسيع فتحته في القلب أدواء البلاد ونكبات الأمة ، وأسمع صخبها وضجيجها بالأذن التي لم تزل تدوى فيها زفرات البائسين وصيحات الثردين والشهداء

أولئك هم أصنام الشعب المستضعف الفُلول، استفزهم ما راود أمجادهم من حذر ، وخامر أحلامهم من وساوس، فترا كضوا من مقاعد الزعامات والمناصب المنتزعة بدهاء الجهل ودسيسة العجز ، ومن أبواب الهياكل والمعابد وجوانب القوى المسيطرة على العناصر الحائرة المتعثرة ، هرعوا يتصايحون :

نحن أرباب هذه الأرجاء وأسياد شعبها . . نحن الأحياء يعبدنا الأحياء ، فمن ترى هذا الصنم الجامد لايملك سمعاً ولا بصراً يرفع على مثل أنصابنا فيحنى الناس الرؤوس أمامه خاشعين ؟

من هذا الدخيل الجامد الصامت تُقحمه الهيكل قوة مجهولة وتفرض به على النفوس عبادة لاتوجه إلينا ، محرقة عند قدميه بخوراً لايتعالى نحو تيجاننا ؟ وصاح أحد صغار الأصنام بأسياده الجسام : أفا عرفتموه ؟ إنه ذلك الفتى الضعيف الناحل الذى كان يحدجنا بلفتات الاحتقار ويقرع أسماعنا بأناشيد زهوه واغتراره . إنه هو الذى أنكر ألوهيتنا المتعددة السائدة على عشرات العناصر المتقاطعة ، فادعى أن للوطنية إلهاً واحدا وأن قطعاننا قطيع واحد لراع واحد هو حق الحياة

أفليس هذا الصنم الجامد ، ذلك الفتى الذى رأى في عزتنا مذلة لقومه، وفي عظمتنا صغارا لبلاده ، فتوارى وفي دمعته نار وفي أنينه إرعاد

فقالت طغمة الأصنام : ومن يجرؤ على رفع هذا الانسان المتحجر إلى مصاف الأرباب فيقتعد المنصة العالية فوق مستوى الرعية ؟

أوصل هذا الانسان إلى نفوذ سر السيادة فرقص على الحبلين، وتعارج على الساقين ، موهما الشرق أنه ذو الحول والطول وراء ستائر الغرب ، ثم عاد موهما الغرب أنه يقود من بلاده قطعاناً له تخديرها إذا شاء واستنفارها إذا شاء ؟

أهذا الرجل منبسطات السهول ومرتفعات الأنجاد ليستغلها بالسياط تلهب ظهور العاملين فيستقطر من جلودهم نضاره ويقيم على عبوديتهم زعامته . . ؟

أعرف أن يستغل نزعات طائفة أو مطامح عنصر أو تعصب فئة فاستنبت زعامته من الضغائن وأنماها من الأحقاد ؟

أورث مالاً من جدوده فابتاع من متسولات الضمائر مقاماً يسمع الناس منه روائعه وبدائعه ؟

أجهل لغة قومه أم تجاهلها، وأعرض عن تقاليد أجداده أم استنكرها ، محاولا اقتباس مظاهر تتمرد سريرته عليها ؟ هل أقام المآدب وأحيا المراقص لخاصر واستخصر ليثبت أنه أهل للمدنية وقيادة الشعوب إلى النور أم هو توسل على الأقل بالمتابعة متخذا منا موقع الذنب ؟

بأية فضيلة من فضائلنا تحلى هذا الابن ليرفعه من حوله إلى مقام الأرباب ؟

ووجمت الأوثان التي عبدت حتى الأمس القريب متسائلة : إذا كان العهد الجديد الشرقة أنوار ضحاه ولو بعد حين سيرفع لأمة هذا المتمرد من الأموات أنصاباً وسينادي بأمثاله من الأحياء أرباباً

* * *

إن أنوار الحق تتفجر على كل قطر عربي ؛ ففي لبنان كما في مصر والعراق وسوريا وبلدان الجزيرة كلها أبطال يفوضون مقام الأصنام في السياسة كما قوضها من قبل في الدين رسل الله وأنبياؤه وهاهي ذي أوثان الأمس تتلمس رؤوسها بسواعدها المرتجفة متراجعة بخطوات من فقد ثقته بنفسه

اعزبي أيتها الأوثان أيا كنت ومن أية جهة طلعت رسومك على الآفاق ، فما النصب الذى يحييه أحرار الأمة الآن بالصنم الا يزاحمك في هيكل الوثنية ، وقد آن لها أن تضمحل . ما نصبنا

تمثال عزتنا الجريحة وقوميتنا المضللة ؛ إن هو إلا الرمز الكامل لآلامنا وجهادنا في المرحلة التي قدر علينا أن نجتازها ، ليرد الاختبار سوانا إلى محجة الصواب ولنعرف نحن أن نميز بين طريق سلامتنا ومهاوي انقراضنا .

ليس المقام مقام تأبين وتفجع على من يمثل هذا التمثال فإن صفحات تاريخ الأدب مليئة بكلمات أمراء البيان ممن خشع الغرب لبيانه الشرقي وما حلق فوقه من متقدميه ولا من معاصريه بيان . ولئن كان مأتم فوزي من أروع الأيام وأفجعها على الشرق العربي بأسره فإن يوم فوزي إنما هو اليوم الذي يرتفع فيه تمثال صفحة خالدة طبعت عليها مساوئ فترة الانتقال وفجائع طور التجاريب .

أي أخي فوزي ! يا شاعر الأمة المشردة . إنني وأنا أنظر إلى ابتسامتك المرة واشراق جبينك المتجهم أسمع صوتاً يقرع الفضاء من أصداء هذا الوادي مردداً قولك :

أنا الغريب فلا أهـل ولا وطن
إذا انتسبت أمام النـاس وانتسبوا
ومن يكون غريباً في مواطنـه
لابدع إن أنكرته الأرض والشهب

ويليه ، صوت آخر يتردد على ذلك الشاطئ الحزين صداه

قسما بأهلي لم أفارق عن رضى
أهلي وهم ذخري وركن عمادي
لكن أنفت بأن أعيش بموطني
عبداً وكنت به من الأسياد

أسمع هذا الإنشاد فيخيل إلي أن صيحات جيل كامل في أمة روعة فقدت قوميتها تخسرت أوطانها

إن لخطرات الحظ تأثيرها على الأمم كما لها تأثيرها على الأفراد ؛ ليس للفرد كما ليس للمجموع أن يطفر من سلسلة الوقائع إلى مستقر يستحدثه فجأة لنفسه ؛ غير أن هنالك قوة سماها الارادة الجزئية ن شئت تتمرد على الانقياد لما يضير ، فاذا هي تنبهت صمدت بوجه تيار بالمقاومة السلبية حتى يعبر الكاسح فتتمكن من استئناف يرها نحو وجهتها ، وإن هي استسلمت وجبنت فقدت الشعور اتها ومشت متطايرة مع العاصف ينثرها هباء على مرا كضه .. ن هذه الأمة التي كونت شخصيتها من مبادئ واحدة في الأصل ومن ثقافة انطوت سريرتها عليها منذ أجيال ، ومن بيان وعى علوم المتقدمين ، وما قصر عن استيعاب علوم المتأخرين لايستقيم لها أمر ولا يستعاد لها مجد مالم تتوصل إلى إحياء حضارة تتوافق وما كمن فيها من فطرة وجوافز

لقد مرت بهذه الأمة أدوار من التاريخ قضت على استقلالها وحضارتها فذهبت قطعاناً مبددة تتراكض وراء كل ناعق يجزها ويحز رقابها ، ولو أن العناية لم تستبق لنـا في كل حقبة أنموذجا لكياننا ورسماً لما كنا ولما يجب أن يكون لما بقي لنا من صفاتنا الأصلية شئ نستدل به على حقيقتنا

إن سريرة الأمم المبتلاة بالانحطاط المرهقة بالمظالم تنكمش منسحبة من كتل الشعب لتتجلى من حين إلى حين لمعات أنوار في بيان عباقرته المتمردين . وإذا نحن استعرضنا فيلق المجاهدين من أول منبه للفاضلين تحت الأطلال إلى هذا المنتصب بيننا الآن كأروع رمز لشخصية الأمة الكامنة وراء تشردها وتقاطعها ، لما رأينا واحداً من هؤلاء المجاهدين ينزع مثل هذه النازع الضليلة التي يتوغل فيها المشككون الحائرون في هذه الأيام

إذا شئنا أن نتبين حقيقة موقفنا من أنفسنا ومن سوانا ، وإذا صعب على البعض منا أن يتميز طريقه إلى قوميته ووطنيته فليتنصت إلى ما تصدو به أجواء البلدان العربية كلها من أقوال المصلحين الذين عاشوا بآمال أمتهم وماتوا ببلالها وأدوائها

أولئك المضطهدون هم أولى بإدارة سرائرنا ممن كانت حياتهم لهم لا للناس ، فما شعروا بذل الأمة لأنهم استغلوه ، وما أحسوا بأنهم غرباء في أوطانهم لأنهم أنكروا كيانها ومالأوا على حقها

ما يثير النعرات الدينية والاقليمية في هـذه البلاد إلا الأنانيون الذين يرون في تبدد الأقوام تجارة رابحة لسعاياتهم ، أما الأرواح الجبارة التي أشبعت من مبادئ الشرق العليا حرية واستقلالاً ومجداً فانها تمر بأجنحتها محلقة فوق كل عنصر ثقافته من وحي الشرق ، والهامه وبيانه من لغة كفلت حياتها قوة لا تطاولها قوة ...

لقد كان زمن أمكن فيه للأمة أن تبعث جسما واحداً حين مزقت كفنها وشقت لحدها ، ولكنها انتثرت بين أنامل الجامعين وقد عبثت بالرمة أهواء الحياة بعد أن جمعتها روعة الموت ، فاذا بالميت الواحد هياكل عظام عديدة تهب من مرقدها منفرطة

يتسلق كل منها ذروة لاستقبال أنوار الضحى وأوائل شعاع الشمس

تلك سانحة من الدهر ولت ولن تعود ما لم نستعدها بعشرات الأعوام جهود من يذكرون أن جميع هذه الهياكل القزمة ، وقد بدأت تدب فيها الحياة ، إنما هي هيكل جبار واحد جرعه سيف واحد وتسجى طوال الأجيال جثة واحدة في قبر واحد

لا يضع للأمة دستورها الحقيق إلا من مثلوا سريرتها وثقافتها شاملة لروح المذاهب والعناصر كلها ؛ وما أدري أن بين عباقرة الشرق العربي أحياء وأمواتا من سجن روحه بين جدران طائفته وحطم جناحي عبقريته في قفص إقليمه متكراً وطن فكرته الواسع الأرجاء ...

هنالك تحت ظلال الأرز نصب لم يزل يهتف من أعلى ذرى لبنان بقوله :

أنا مسيحي ولي الفخر بذلك ، ولكنني أهوى النبي العربي الكريم ، وأحب مجد الاسلام وأخشى زواله . إنني أسكن المسيح شطراً من حشاشتي ومحمداً الشطر الآخر

أنا شرقي ولي الفخر بذلك ؛ ومهما أقصتني الأيام عن بلادي أظل شرقي الأخلاق ، سوري الأميال ، لبناني العواطف

ذلك هو نداء جبران ! فما ذا تجيبه يا فوزي ؟

أفما أنت شاعر الأمة المشردة ؟ أفما تمازجت في روحك كل عظمة من وحي أنبياء الشرق جميعهم ، ومن إلهام عباقرته وفروسية أبطاله في كل زمان ومكان ؟ ...

أفترضى أن يضرب حولك من لبنان نطاق يوقفك في طريق النهضة وقفة تمثال أودنيس في جبيل وبأعال وباخوس بين أعمدة بعلبك المحطمة ؟ ...

لا وحقك يا فوزي ، ما أنت في تقدير أخيك الذي قاد أوائل خطواتك نحو قمة الخلود ، وفي تقدير كل نافذ لروحك ومدرك لعظمتك إلا المثل الأعلى للوطنية الحقة التي عشت من أجلها شريداً ومت من أجلها شهيداً ...

اليوم لا ترى حولك إلا فئة قليل عديدها تطوف ممجدة فيك الشاعر المبدع الكبير ، ولكنك سترى غداً أفواجاً من كل عنصر ومن كل قطر عربي تتوارد اليك لتحيي فيك بطلاً من طليعة الفيلق الذي حطم سلاسل الأمة بتحطيم أصنامها والقضاء على أرباب شركها وأوهامها

فيلكس فارس

محمد بن جعفر الكتاني

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

للأستاذ محمد المنتصر الكتاني

تمهيد

في تاريخ الرجال كثير من الخلاف يكاد يعجز الباحث والمؤرخ عند ما يريد التوفيق — وتاريخ رجال المغرب ورجال المشرق في هذا سواء — فبينما أنت تقرأ عن خالد مثلا أنه ولد في القرن الثاني إذا بك تجد في تاريخ آخر أنه مات في القرن الرابع ، ثم هو نفسه تارة يصوره لك بعض المؤرخين في صورة العابد العالم الثقة الصدوق ، وحيناً تقرأ عنه عند غير المؤرخ الأول أنه لم يكن بالعالم ولا الثقة وإن هو إلا كذاب مضل . وفي كتب التراجم أمثلة لهذا النوع كثيرة .

ويريد جمع من النقاد معرفة السبب فتعييهم المعرفة ويعلمهم تعداد الأسباب والاحتمالات فيقفون عندها دون جزم بواحد منها

وعندي أن لذلك أسباباً كثيرة أهمها :

(١) فقدان الثقة في كثير من المترجمين . إذ هؤلاء يكتبون — عمداً — ما توحيه إليهم أغراضهم وإن خالفت ما يعرفون

(٢) جهل بعضهم بحالة المترجم ، فهم إذا سئلوا عنه حملهم الاعتداد الكاذب بالنفس أن يجيبوا بصفات لو قدر وعاش المسؤول عنه وسمعها لنفاها وأنكر أن تكون فيه ؛ وقد يضطر هذا المجيب لكتابة ما أجاب به فيزيده تنميقاً وتزويراً في جمل مغرية مشوقة يستر بها تضليله وكذبه .

(٣) الخصومة المذهبية . فترى المؤرخ في هذه الحالة يهتم اهتماماً مريباً بالبحث عن النقائص ، حتى أنه ليجهد نفسه إلى حد الإعياء ليخرج له معايب من قصص وحوادث تافهة لا يؤبه لها عادة . وكم نحسن الظن في هذا الخصم المذهبي لو اعتنى بالمزايا اعتناءه بالنقائص ولكنه لا يعرج له على مزية ولو كانت كوضح الشمس ، وبالعكس الحب المذهبي ، فبقدر ما يخفي الأول من مزايا ومحاسن يستر هو الثاني العيوب والمخازي .